بعثُ الخلائق والأدلَّة عليه

الإمام الشيخ
عبد الله سراج الدين
رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب

(الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها)

من الصفحة ١٤٦ حتى الصفحة ١٧٠

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني

بناء على توجيهات ولده

المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم مؤلفات الإمام
- المؤلفات المكتوبة وقبسات من المؤلفات

مدير الموقع :
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

بعث الخلائق والأدلَّة عليه

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾.

إن من أصول الاعتقادات الإيمانية: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى يبعث الخلائق بعد موتها، فيجمع أجزاءها بعد تفرُّقها، ويعيد إليها أرواحها بعد مفارقتها، ويعيدها كما بدأها.

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾.

فهو سبحانه يُعيد هذا الخلق بجواهره؛ بل وأعراضه على المعتمد كما بدأه أول مرة، وليس في هذا شيء من المُحالات العقلية، ولا المناقضات الفكرية.

وذلك أَنَّ العاقل إذا أتبع نظراته العابرة في العالَم الإنساني، وتكويناته الخلقية، وتطوراته وتقلباته في تلك الأدوار، وتغيُّرَاته في تلك الأطوار، وهكذا أجال نظره في عالم النبات، وانفلاق تلك النواة الدفينة في بطن الأرض بقدرة الباري تعالى عن شجرتها وفروعها، وأغصانها وثمراتها، ثُمَّ جعل يتنقل في عجائب الأرض، وعظمة السموات وما فيها من المبدَعات، فإنه حينئذ تتجلّى له

حقائق قدرة الباري تعالى، ويُشاهد آيات إبداعه وخلقه، ويعلم يقيناً أَنَّ مَن قدر على بدء الخلق لهو قادر على إعادتهم بلا ريب.

ولقد جاء القرآن العظيم بطُرُقٍ واضحة، تثبت أمر المعاد الجسماني والروحاني؛ ألا وهي: طريقة البرهان، وطريقة العيان، وليس بعد البرهان والعيان من دليل وتبْيَان، وتلك الحجج القرآنية هي المحجَّة البيضاء التي لا تعشو فيها الأبصار، ولا تختبط فيها العقول والأفكار، ونحن نأتي بجانب منها إن شاء الله تعالى فنقول:

الطريقة الأولى: النظر في الآيات الآفاقية والنفسيّة:

قال الله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ
فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا
تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ
أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن
فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧
تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ
وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً
مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ
وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا
بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

إذا أمعن القارىء في هذه الآيات الكريمة، وتدبَّر ما فيها: يتضح له وجه المناسبات الحكيمة، وأنها كلّها براهين قطعية، وأدلة عيانية شاهدة على أن الإعادة حقٌّ، وأن الله على كل شيء قدير، وأنه لا يُعجزه شيء، وذلك أَنَّ للإعادة أشباهاً ونظائر يتقلّبون فيها،

ويشاهدونها بأعينهم؛ فعلام يعجب الجاحدون وينكر المنكرون؟!!

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

استبعدوا الرجعة بعد الموت؛ وتفرّق الأجزاء وبلاها؛ فجاءهم الجواب: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾.

وذلك أَنَّ ما تأكله الأرض من أجزائهم؛ هو معلوم عند الله تعالى لا يغيب مهما تباعد وتفرَّق، فهو سبحانه يعلم كلَّ جزء عمَّن انفصل، وبمن كان اتصل، وإنَّ تلك الأجزاء كلها محفوظة في كتاب جمعها كلِّها، فهي وإنْ غابت عن أبصار أهل الدنيا لكنها محفوظة في ذلك الكتاب الذي عنده سبحانه: بذواتها وذراتها.

فإن استبعدوا ذلك بالنسبة للقدرة؛ فهذه السموات والأرض أكبر خلقاً منهم وأشدّ.

فإن كانوا يرون أَنّ الإعادة ليست أكبر من البدء؛ فالذي قدر على البدءِ يقدر على الإعادة.

وإن كانوا يرون أن الإعادة أكبر من البدء وأعظم؛ فلقد خلق الله سبحانه ما هو أكبر منهم وأشد خلقاً منهم؛ وهي السموات والأرض المشهودة لديهم بأعينهم، وإلى هذا يرشد سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: وهي الجبال التي نصبها سبحانه، وأودع فيها ما أودع من خزائن ومعادن وخصائص ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً﴾ ـ للمستبصرين ـ ﴿وذكرى﴾ للمتذكرين ـ وما يتبصَّر ويتذكر إلا كل عبد منيب، ولذا قال سبحانه: ﴿وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

ثم بيَّن الله تعالى في سياق الحجة على مُنكري الإعادة بعد

الموت فقال سبحانه: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

وهكذا الدليل يثبت قدرة الله تعالى، ويثبت عظمة القدرة الإلّهية وسعتها، وهذا الدليل يقرِّب أمر الإعادة، ويبين أنّ لها نظائر وأشباهاً مشهودة أمامهم.

وذلك أنّه سبحانه أنبت في هذه الأرض؛ من حبة أو نواة دفينة في بطنها أصنافاً من زروع وأشجار وثمار، على مختلف ألوانها وطعمها، وتنوُّع منافعها، وذلك دليل باهر يُبصر به أرباب البصائر، ويَستدل به أولو العقول على إثبات البَعث، وكيفية الإعادة لهذا الجسم، الذي تحتفظ الأرض بأجزائه مهما تفرّقت، وتبددت وتباعدت، ومن تلك الأجزاء الدفينة يُنشيء الله تعالى النشأة الآخرة ولذا قال سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ ـ أي: مثل هذه الإخراج المشهود المعايَن أمامكم من الأرض: الفواكه والثمار والأقوات والحبوب ـ فيخرجكم من الأرض بعد ما غُيِّبْتُمْ فيها، ودفنتم في أنحائها وبطونها.

ثم إنه سبحانه بَيَّن في قوله: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ الآيات، أن إنكار المعاد، وتكذيب الرسل؛ هو عادة كل جبار عنيد، يكذِّب بالحق بعد ما تبيَّن، ويُنكر الواقع بعدما اتضح، فلا فائدة في الجدل معه، فإنه لا يَستخرج منه العناد إلا سَطوة ربِّ العباد، وأخذه بالعذاب والعقاب ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

ثم بَيّن سبحانه دليلاً نفسياً على إثبات الإعادة لهذا الخلق؛ بأنه

سبحانه لمَّا بدأ هذا الخلق لم يَعْيَ، ولم يمسسه لُغُوب ولا تعب؛ فيعجز عن إعادته ثانياً.

فإن كانوا قد عَموا وصَمُّوا عن الأدلة السابقة كلها: السماوية والأرضية، فليتفكروا في أنفسهم، وليتعقَّلوا في نشأتهم الحاضرة التي هم فيها، فإنَّهم الآن يتقلَّبون في خلق جديد يتجدد عليهم، غير أنهم قد التبس الأمر عليهم، فظنوا أنَّهم هم في كل حال، وأنهم لا يعتريهم تبديل ولا تحويل، ولا تخليق جديد، ولكن الأمر ليس بذلك، بل إنهم في كل لحظة؛ بل في أقل من أجزاء اللحظة تفنى منهم أجزاء خَلْقية، وجواهر فردية، ويخلقُ الله تعالى غيرها، ويُجدِّد عليهم وجودَها ـ وهكذا وهكذا.

وهذا الأمر لا يُخالف فيه إلا جاهل مكابر، فإن الإنسان خَلَقه الله تعالى أولاً نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم جَنيناً، ثم طفلاً، ثم صبياً، ثم مُراهقاً، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هَرِماً فانياً، ومن المقطوع البديهيِّ أنه لم ينتقل من طَوْر إلى طور دفعة واحدة، بل مرَّت عليه لحظات وساعات فنيت منه أجزاء وتجدّدت فيه أجزاء أخرى، شيئاً فشيئاً تدريجياً، حتى انتقل إلى الطور الثاني وهكذا دواليك، ولكن لم يتبين له ذلك حتى مضت مدة طويلة، فبان له الأمر، وظهر فيه التطوير والتبديل، والتجديد والتحويل.

قال الله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ

ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ أي: فلا فرق بين تلك الأطوار التي يُقلبكم فيها بالنسبة لقدرته سبحانه، ولا يُعجزه شيء في ذلك، بل إنَّ جميع ذلك يَسِير عليه، وهو على جميع ذلك وغير ذلك قدير.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

روى ابن أبي حاتم وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَن العاص بن وائل الجاهلي، أخذ عظماً من البطحاء ففتَّه بيده، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أَيُحْيي الله هذه بعد ما أرى؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نعمْ، يُميتك الله ثم يحييك، ثم يُدخلك جهنم» فنزلت هذه الآيات ردّاً عليه وعلى أمثاله.

وروي أَنَّ القائل ذلك هو أُبيٌّ بن خلف ـ فجاء الجواب القرآني على هذه الشبهة الفاسدة بوجوه:

١ ـ إنَّ هذا الضالَّ استبعد الإعادة والحياة في عظامٍ رفاتٍ، وتَرَكَ نفسه من الاعتبار، فإن الله تعالى الذي خلق الإنسان، ونقله من العدم إلى الوجود لهو قادر على الإعادة، فما لهذا الضليل نَسِيَ خلْقه بعد العدم، فراح يُنكر حياته بعد الموت؟!!

٢ ـ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن إيجاد المبادىء أصعب في مُطَّرد العادة والعرف؛ من ردِّ شيء كان إلى ما كان عليه من ذي قبل ـ يعني أن القادر على البداية هو القادر من باب أولى على الإعادة.

٣ ـ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ فإنَّ جميع أجزاء الإنسان مهما تفرَّقت وتباعدت، فإنها معلومة عند الله تعالى، محفوظة عنده، لا يضلّ ربي ولا ينسى، ولا يلتبس عليه شيء.

٤ ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

وفي هذا دليل على أَنَّ هناك قوة تتغلب على المتنافِرَيْن المتناقضَين: وهما الأخضر الحيُّ والنار اليابسة، ألا وهي قدرة الله تعالى، الذي يَستخرج الشيء من ضِدِّه بل ومن نقيضه.

٥ ـ إنَّ الذي أبرز النار التي كانت كامنة في الشجر والحجر، فأظهرها بالقدْح، وأشعلها بالنفخ، لهو قادر على أن يُبرز الميت الدفين في التراب الكامن في الخبايا الأرضية، بسبب أنه سبحانه يأمر إسرافيل عليه السلام بالنفخ في الصور، والنقر في الناقور.

الطريقة الثانية من الحجج التي أقامها الله تعالى على عباده، وأثبت لهم فيها قدرته على إعادة الخلق بعد موتهم هي: طريقة الشهود والعيان:

وهي أن الله تعالى أجرى في ذلك أموراً فعلية، حيث أمات فيها طوائف من الإنسان، ومن الحيوان، ومن الطيور، ثم أحياهم بعد موتهم، على مشهد ومرآى من الناس، ليعلموا أَنَّ الذي أعاد ذلك

بعد الموت لهو قادر على أن يُعيد الأموات كلَّهم بعد موتهم، وقد أخبر القرآن عن تلك الوقائع، وبيَّن أنها أمور معلومة، ومشهودة لدى الأمم الماضية.

فَمِنْ ذلك القوم الذين أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: ذكر غير واحد من السلف: أن هؤلاء القوم أهل بلدة من زمان بني إسرائيل، استوخموا أرضهم، وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فِراراً من الموت، هاربين إلى البرية، فنزلوا وادياً أفيح ـ واسعاً ـ فملؤا ما بين عَدوتيه، فأرسل الله إليهم مَلكين أحدهما من أسفل الوادي والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم، ثم إنهم تفرّقت أجزاؤهم، وتمزّقت.

فلما كان بعد دهر مرَّ بهم نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل يقال له حزقيل، فسأل الله تعالى أن يُحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي: فيما يُريهم من الآيات الباهرة، والحجج القاطعة، والدلالات الدامغة، التي تُثبت أن الله تعالى قادر على إعادة الأموات بلا ريب.

ومن ذلك أيضاً السبعون الذين اختارهم موسى عليه الصلاة والسلام للميقات الذي وعده الله تعالى أن يكلمه فيه، ويُنزل عليه التوراة ـ أماتهم الله تعالى ثم أحياهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: بأن الله تعالى أعطاك التوراة، أو أن الله تعالى قد كلّمك ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: نار من السماء أحرقتهم، أو صيحة سماوية خرّوا لها صَعِقين ميتين يوماً وليلة ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وكان بعثهم بعد موتهم بسبب دعاء موسى عليه الصلاة والسلام، ومناشدته ربه.

ولا يتنافى موت هؤلاء الذين تقدم ذكرهم في الدنيا مرّتين مع قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ لأن موتهم إذ ذاك لم يكن عن استيفاء آجالهم؛ وإنما هو موت عقوبة، فكأنه ليس بموت ـ أي: أنه عارض، أعقبه حياة في الدنيا نفسها لا في عالم آخر، فلا يختلف مع الآية الثانية.

ومِنْ ذلك أيضاً قصة العُزير عليه السلام، أماته الله تعالى مائة عام ثم بعثه:

قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قال جمهور السلف رضي الله عنهم: إنَّ هذا الذي مرَّ على قرية هو العُزَير أحد أنبياء بني إسرائيل، مرّ على بلد بيت المقدس بعدما دخلها بُخْتَنَصَّر وخرَّبها، فرآها العُزير وهي خاوية على عروشها ـ

أي: ساقطة على سقوفها، باعتبار أَنَّ سقوف البيوت تسقط أَوَّلاً، ثم تتهدم الجدران وتتساقط عليها ـ أي: على السقوف ـ ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾.

قال ذلك: استعظاماً للأمر، وتفخيماً وتعجُّباً من عظمة قدرة الله تعالى القدير على كل شيء؛ لا من باب الاستبعاد والإنكار، وذلك نظير قول زكريا عليه الصلاة والسلام، فيما أخبر الله تعالى عنه لما بُشِّر بالغلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ يعني: أن ذلك الأمر عظيم، جدير بأن يُتعجب من عَظَمته وفخامته.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ﴾ أحياهُ بعد موته ﴿قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ﴾ وهذا السؤال ورد لإظهار عجز العُزير وغيره عن الإحاطة بشؤون الله تعالى وعظيم قدرته.

﴿قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾ وإنما قال ذلك لأنه مات ضُحى النهار، وبُعِث بعد المائة قَبْل الغروب، فقال قبل أن ينظر إلى الشمس: ﴿يَوۡمًا﴾ ثم التفت فرأى أَنَّ الشمس لم تغرب، بل آثار أنوارها على الأماكن العالية فقال: ﴿أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾ على طريق الإضراب.

﴿قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾ أي: لم يتغيَّر في هذه المُدَد الطويلة، والسنين العديدة، وكان طعامه على ما رُوي عنباً وتيناً، وشرابه عصيراً أو لبناً، ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف نَخِرت عظامه، وتفرَّقت أوصاله.

وهكذا أمره الله تعالى أن ينظر أَوَّلاً إلى طعامه وشرابه حيث إنَّه

لم يتغير، حتى يُبيِّن له أن الذي حفظ له طعامه وشرابه من التغيُّر والفساد على طول السنين المائة؛ هو الذي حفظ العُزير من التغيُّر، ومن أن تأكله الأرض، وتفسده على السنين العديدة، بل أبقى له جسمه بعد موته، وحفظه من البلى، لأَنَّ الله تعالى حَرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

وأمره الله تعالى أَن يَنْظُر ثانياً إلى حماره وقد بلي، وتفرّق وتمزق؛ ليزداد يقيناً بأنه مرَّ عليه مائة سنة.

ثم قال تعالى له: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: عبرة ودليلاً على قدرة الله تعالى على إحياء الأموات وبعثها، وأنه سبحانه قادر أَنْ يحفظ أجساد مَن أراد حِفظهم، وأنه سبحانه قدير على كل شيء، ولا يُعجزه شيء.

ثم قال له: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ أي: عظام الحمار البالي المتفرِّقة أوصاله وعظامه ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي: كيف نرفعها من الأرض، ونركِّبها فوق بعضها، ونعيدُها كما كانت قبل الموت والتمزق ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ أي: نستر العظام باللحم، كما نستر الجسد باللباس.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ اتضح له اتضاحاً تاماً، وعاين كيفية الإحياء ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وذلك علم رؤية وعيان، فوق ما أنا عليه من اليقين والإيمان.

ومن **ذلك** قصة إحياء الطيور على يد الخليل سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وقد ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم بعد قصة العُزير عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

اختلفت الأخبار المنقولة عن علماء السلف رضي الله عنهم في سبب سؤال الخليل ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ ربَّه أن يريه كيفية إحياء الموتى:

فجاء عن الحسن البصري والضحاك وقتادة وغيرهم: أن الخليل عليه الصلاة والسلام سأل ربه ذلك لينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين.

وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والطبراني، والحاكم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله تعالى أخبر موسى بما صَنع قومُه في العجل؛ فلم يُلقِ الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت».

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما والسدي وسعيد بن جبير: أَنَّ الملك بشَّر الخليل عليه الصلاة والسلام بأن الله تعالى قد اتخذه خليلاً، وأنه يُجيب دعوته، وأنه يُحيي الموتى بدعائه ـ فلذلك سأل الله ما سأل.

وَرُوِيَ عن محمد بن إسحاق: أَنَّ سبب سؤال الخليل ذلك، هو منازعة النمرود إياه في إحياء الموتى، حين قال له الخليل: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وردَّ على النمرود زعمه أن العفو عن المجرم

هو إحياء له، وأن تنفيذ القتل فيه إماتة له، وراح النُّمرود يتوعَّد الخليل عليه السلام بالقتل إن لم يُحيِ الله الموتى على يد الخليل، بحيث يُشاهد النمرود ذلك؛ فدعا سيدنا الخليل ربه حينئذ فقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ أي: ألم تعلم وتؤمن بأني قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألني عنه؟

أولم تُؤمن بأني قد اتخذتك خليلاً، أَوَلَم تُؤمن بأن الجبار النمرود لا يستطيع أن يقْتلك ﴿ قَالَ بَلَىٰ ﴾ أي: أنا مؤمن بذلك إيماناً لا شك فيه، ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ بانضمام رؤية العيان إلى الإيمان والإيقان بأنك القادر على ذلك، وليطمئن قلبي بالخلَّة التي تفضَّلتَ بها عليَّ، وأكرمتني بها وبلوازمها: من إجابة الدعاء وما وراء ذلك، أو ليطمئن قلبي بأن الجبار لا يقتلني بعد ما يُشاهد كيفية إحيائك للموتى على يديَّ.

وعلى كلٍّ فسؤال الخليل لم يكن عن شَكٍّ أصلاً بدليل قوله ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ ﴾ أي: أنا مؤمن ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾.

وقد قطع النبي صلى الله عليه وآله وسلم دابر الوهم الذي يتلاعب في بعض الخواطر، فيخيِّل إليها أَنَّ الخليل عليه السلام قد اعتراه بعض الشك، فلذلك سأل ما سأل، فإن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم قطع دابر الوهم الباطل بقوله على سبيل التواضع والتبرئة كل البراءة، فقال كما في: (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «نحن أحق بالشك من إبراهيم عليه السلام إذ قال: ربِّ أرني كيف تحيي الموتى» ويعني بذلك صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّا لم نشكّ أصلاً، فلم يَشك إبراهيم الخليل أصلاً، فكأنه صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن شَكَّ إبراهيم فنحن أحقّ بالشك، ولكنا نحن

لم نشكّ فإبراهيم لم يشكّ؛ صلوات الله تعالى على حبيبه وخليله وآلهما أجمعين.

قال سبحانه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ أي: مختلفة الأنواع.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها: الغُرْنُوْق، والطاووس، والديك، والحمامة - وروي غير ذلك، وعلى كل فإنّ المقصود أربعة من الطير متنوعة.

وإنما خصّ الطير بذلك لسهولة ما يُفعل بها من التجزئة والتوزيع، والتفرقة على الجبال، ولما فيها من مَزيد قابليّة تفرق أجزائها من الريش ونحوه، ففي جمعها وإعادتها وإحيائها مَزيد ظهور لقدرته سبحانه.

﴿فَصُرْهُنَّ﴾ أي: قطِّعْهُنَّ أجزاءً، واضْمُمْهُنَّ ﴿إِلَيْكَ﴾ واجْمَعْهُنَّ ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾.

وبهذا أمر الله تعالى الخليل عليه السلام، أن يذبح تلك الطيور، ويقطعها إِرَباً إرباً، ويجزئها ما استطاع من التجزئة، ويخلطها إلى بعضها، ثم يجعل على كل جبل منهنَّ جزءاً.

واخْتُلف في عدة الجبال التي فرَّقها عليها، فروي أنها أربعة، وروي سبعة، وروي أنها عشرة.

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: ساعياتٍ مُسرعاتٍ في العَدْوِ والعودة إليك.

والحكمة في سعي الطيور إليه مَشْياً دون الطيران إليه هي: أنها لو طارت لتوهم مُتوهِّم أنها غير تلك الطيور الميتة التي ذبحها وفرقها، أو أن أرجلها أو بعضها غير سليمة، ولهذا قال سبحانه:

﴿ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ غالب لا يُعجزه شيء، حكيم يضع الأشياء في مواضعها.

وفي هذا دلالة على أَنَّ هذا الأمر كان على مَشهد من الناس، وعلى مرأى من النمرود وملائه، ليكون حجة للخليل عليه السلام قائمة على النمرود وأتباعه، ولذلك جاءت هذه القصة بعد ما ذكر الله تعالى المُحاجَّة التي جرت بين الخليل والنمرود.

قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ ﴾ الآية.

فهذه وقائع ثابتة، أجراها الله تعالى وأوقعها، ليقيم الحجة على العباد، وليبين لهم أنه قادر على إحياء الموتى سبحانه، وإعادتهم إلى حياة جديدة في عالمٍ آخر يوم القيامة أي: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

* * *

شبـه المنكريـن للإعـادة وبطـلانها

لقد أزال الله تعالى شبه المنكرين للإعادة وأبطلها كلَّها، وذلك أَنَّ شبه المنكرين للإعادة ترجع إلى ثلاثة أنواع:

الأول: اختلاط أجزاء الأموات بأجزاء الأرض؛ واختلاطها بأجزاء أخرى ـ فكيف يحصل التمييز بينهما؟

الثاني: أَنَّ القدرة لا تتعلق بذلك في زعم المنكرين، وأن ذلك غير ممكن في زعمهم.

الثالث: زعْم المنكرين أَنَّ الإعادة لا فائدة منها، وأَنَّ الحكمة تقتضي دوام هذا النوع الإنساني جِيلاً بعد جيل، هكذا أبداً على وجه البقاء.

فجاءت براهين القرآن المثبتة للمعاد، مَبنيَّة على ثلاثة أصول، بها أزاح الله تعالى شبهات المنكرين ومزاعمهم الباطلة:

أولاً: تقرير القرآن الكريم سَعَة عِلم ربِّ العالمين، وإحاطته بكل شيء، وأنه لا يَخفىٰ عليه شيء، ولا يلتبس عليه شيء:

فقال سبحانه: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ أي: فلا يلتبس علينا شيء، ولا يغيب عنا جُزء، بل نحن بكل جزء عالمون، وله حافظون، في عالم عندنا، فتلك الأجزاء وإن غابت عن أبصارهم؛ فهي لا تغيب عنا، بل هي محفوظة لدينا.

ثانياً: تقرير القرآن الكريم كمال قدرة ربِّ العالمين، وأنه لا يُعجزه شيء:

قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: فالذي خلق ما هو أكبر من الإنسان وأشد وهو السماوات والأرض، هو قادر على إعادة هذا الإنسان، لأن إعادته ليست أكبر من بدايته، ولئن فُرِضَ أنها أعظم من البدء، فلقد خلق ما هو أعظم وأكبر من الإنسان، وهو السماوات والأرض المشهودة بالعيان.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

ثم إنه أرانا أُموراً واقعية مشهودة في الإنسان والحيوان والطيور، أماتها وفرَّق أجزاءها، ثم أعادها وأحياها، فذكر لنا قصة الذين أماتهم وهم ألوف ثم أحياهم، وقصة السبعين كما تقدم، وقصة العُزَير عليه السلام ونحوها كما تقدم، ليكون ذلك حجة مشهودة دالَّة على قدرته سبحانه على إحياء الموتى.

ثالثاً: تقرير القرآن الكريم كَمال حِكمة ربِّ العالمين، وأَنَّ مِن مقتضى حكمته أن يُعيد الخلق، ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ و﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ وليأخذ الحقَّ من الظالم للمظلوم، ومِنَ الباغي لمن بُغيَ عليه، وهذا مقتضى العدل والحكمة بلا ريب، فهو سبحانه لم يَخلق العالم عبثاً، بل خلق العالم بالحقِّ، ولا بدّ أن ينتهي أمر العالم للحقِّ.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

يعني: أَنَّ الحُكْم بالتساوي بين المتناقضين هو حكم سيِّىء، مردود عند أهل الحكمة المخلوقة الجزئية؛ فكيف عند حكمة الخالق التي لا تتناهى؟

فكما أنّه لا يتساوى ظلام الليل مع ضياء النهار، ولا يتساوى الأعمى والبصير، ولا الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فلا يتساوى المسيؤون مع المحسنين، ولا الطالح مع الصالح، بل لا بدَّ من التمييز بينهما في عالَم آخر، تظهر فيه النتائج، وتبرز فيه الدقائق، وتُحقّ فيه الحقائق ـ وهو يوم الحاقَّة وما أدراك ما الحاقة؟

قال تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾.

* * *

كيفية البعث

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

والبحث في ذلك له عدَّة أطراف:

أولاً: اختلف العلماء في عَدَد النفخات في الصُّور؟

فذهب كثير من العلماء إلى أن النفخات ثلاثة: نفخة فَزَع وهي السابقة على غيرها، ونفخة صعْق أي: إماتة، ونفخة إحياء.

فعند نفخة الفَزَع يفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، ثم يُنفخ نفخة الصعق ـ أي: الإماتة ـ فصعِق من في السموات والأرض إلا من شاء الله، ثم بعد ذلك بمدة طويلة يُنفخ نفخة الإحياء فإذا هم قيام إلى ربهم ينظرون.

وذهب قسم من العلماء إلى أن هناك نفختين: نفخة إماتة ونفخة إحياء.

ثانياً: أما الذين استثناهم الله تعالى من الفزع والصعق حين يُنفخ في الصُّور؛ فقد اختُلف فيهم:

فقيل: هم جبريل، وإسرافيل، وميكائيل، وملك الموت على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

وقيل: هم الأنبياء ـ وإلى ذلك جنح البيهقي كما في: (الفتح).

وقيل: هم الشهداء ـ أي: ومن باب أولى وأجدر استثناء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقيل: هم الحور العين، وخزنة الجنة، وخزنة النار ـ وعلى كلٍّ من الأقوال فالواجب اعتقاد أَنَّ هناك مَن استثناهم الله تعالى، وإنِّي لا أُريد الآن أن أطيل البحث في تحقيق ذلك؛ لأنه يحتاج إلى بسط وبيان، فربما نأتي عليه في غير هذا الموضع إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: وأما المدة فيما بين النفختين: الإماتة والإحياء، وكيفية إحياء الموتى:

فقد جاء في الحديث المتفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما بين النفختين أربعون».

قالوا لأبي هريرة رضي الله عنه: أربعون يوماً؟

قال: أَبَـيْـتُ ـ أي: لا أجزم بذلك ـ.

قالوا: أربعين شهراً؟

قال: أبيت ـ أي: لا أجزم بأنها أربعون شهراً ـ.

قالوا: أربعين سنة؟

قال: أبيت ـ.

«ثم يُنْزِل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وليس شيء من الإنسان إلا يَبْلى؛ إلاَّ عظماً واحداً وهو عَجْب الذَّنَب، ومنه يُركَّب الخلق يوم القيامة».

ففي هذه الرواية لم يجزم أبو هريرة رضي الله عنه بتعيين الأربعين ما هي؟ ولكن جاء في رواية لأبي داود أنها أربعون سنة.

وفي رواية لمسلم، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً، منه يُركَّب الخلْق يوم القيامة».

قالوا: أيُّ عظم هو يا رسول الله؟

قال: «عجب الذَّنَب».

وفي رواية مالك، وأبي داود والنسائي: «كلّ ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب، منه خُلِق ومنه يُركَّب».

وعجب الذنب هو كما قال الإمام النووي: بفتح العين وسكون الجيم: العظم اللطيف الذي هو في أسفل الصُّلب، وهو رأس العصعص، ويقال له عجم بالميم، وهو أول ما يُخلق من الأرض في ابن آدم، وهو الذي يَبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه ـ كما أوضحه النووي رضي الله عنه.

وفي هذا الحديث الشريف بيانٌ لكيفية إعادة الله تعالى الخلائق بعد موتها، وبعثها من قبورها، وذلك أن الله تعالى يُنزل من السماء ماءً على ذلك الجزء الباقي من ابن آدم وهو عجب الذنب، ويجمع الله تعالى ما تَفَرَّق من تراب ذلك الجسم، وتربوا أجسامهم حتى تصير مستعدة لتلبُّس الروح فيها، ثم إن الله تعالى يأمر الملَك فينفخ في الصور نفخة الإحياء؛ فهناك تتطاير كلّ روح إلى جسمها الذي

كانت تعمره ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

فالبعث عبارة عن إخراج ذلك الدَّفين في خبايا الأرض، وبثِّ الروح فيه، ومن هنا ترى أن الله تعالى يُشبِّه أمر البعث والإعادة بإنباته الزروع والأشجار، وإحيائه الأرض بالمطر بعد موتها.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾.

فهو سبحانه كما يُنشىء تلك الشجرة العظيمة، والزروع الخصيبة بإنزال المطر على تلك النواة والحبة الدفينة في بطن الأرض، كذلك يخرج الله تعالى هذه الأجسام البشرية من تلك الذراري والأجزاء الدفينة في بطن الأرض، بإنزال ماءٍ عليها، ثم بثِّ الروح فيها ـ بسبب نفخة الصُّور.

وهذا الماء الذي يُحيي به الله تعالى الأجسام البشرية بعد موتها، هو ماء الحياة المشتمل على جميع العناصر الوجودية الأربعة، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

فكانت السموات والأرض رَتقاً ـ أي: جملة مجملة في الماء، ففتقها سبحانه ـ أي: فصّل وجودهما: أولاً: إلى مرحلة تبخير الماء وتكثيفه، فمن بخار الماء اللطيف خلق السموات، ومن كثيف الماء خلق الأرض والأجرام، ثم فصَّلهما إلى سبع سموات، وسبع أرضين، ثم أمطر السماء، وأنبت الأرض.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: الماء الذي كانت السموات والأرض رتقاً فيه، جعلنا من ذلك الماء كل شيء حي ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

ومما يدل على ذلك، ويبين المقصود من ذلك الماء الوارد في الآية الكريمة، الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قلتُ يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرَّت عيني، فأخبرني عن كل شيء.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أبا هريرة كلّ شيء خُلِقَ مِنْ ماء».

وهذا الحديث بيانٌ للآية الكريمة.

ومن ذلك الماء أيضاً، ما جاء في: (الصحيحين) من حديث الشفاعة ـ أن العصاة حين يخرجون من جهنم، يُلْقون في نهر الحياة، فينبتون نبات الحِبَّة في حَمِيل السيل ـ الحديث.

رابعاً: البحث في الصُّور والنافخ فيه بأمر الله تعالى.

أما الصور فهو كما قال الجمهور من العلماء العارفين: هو عالَم عظيم من عوالم الله تعالى، تجتمع فيه الأرواح بعد مفارقتها

للأجسام، وتختلف في منازلها على حسب اختلاف مراتبها ودرجاتها، وقد ورد أن شكل عالم الصور يشبه القرن في ضيق أعلاه وسعة أسفله، فهو ليس كروي الشكل كالأرض ونحوها بل قَرْني الشكل.

قال الإمام الترمذي في: (سننه): باب ما جاء في شأن الصور: ثم أسند إلى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما الصُّوْر يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قرن يُنفخ فيه»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف أَنْعَمُ وقد التقم صاحِبُ القرنِ القرنَ، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يُؤمر فَيَنْفُخ».

فكأنَّ ذلك ثقل على أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: كيف نفعل، أو كيف نقول؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»(٢).

وأما صاحب القرن ـ أي: الصور الذي يُنفخ فيه ـ فهو إسرافيل عليه السلام، كما جاء مصرَّحاً به في جملة من الأحاديث.

---

(١) قال في: (الترغيب): رواه أبو داود والترمذي، وابن حبان في: (صحيحه). اهـ.

(٢) قال في: (الترغيب): رواه الترمذي واللفظ له وقال حديث حسن، وابن حبان في: (صحيحه)، ورواه أحمد والطبراني من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً. اهـ.

قال في: (الفتح): اشتهر أن صاحب الصور هو إسرافيل عليه السلام، ونقل فيه الحليمي الإجماع، ووقع التصريح به من حديث وهب بن منبه، وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه عند البيهقي، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند ابن مَرْدُويه، وكذا في حديث الصور الطويل الذي أخرجه عَبْد بن حُميد، والطبري، وأبو يعلى في: (الكبير)، والطبراني في: (المطولات)، وعلي بن معبد في كتاب: (الطاعة والمعصية)، والبيهقي في: (البعث) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه إلخ. اهـ.

فبعد ما يُنبت الله تعالى هذه الأجسام، ويجعلها قابلة للروح، يأمر الملك أن ينفخ في الصور نفخة الإحياء فتتصل كلُّ روح بجسمها ولا تخطئه، فما أشبه الإعادة بالبداءة.

قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

* * *